

عمران بغداد في القرن الثالث

(وصف دار الخلافة فيها)

نشرنا في هذا الجزء اثاراً من تاريخ بغداد العلمي الذي في القرن السادس بعد تخريب المنار لعمرانها ونشر هنا اثاراً أخرى من تاريخ عمرانها قبل ذلك سبق لنا نشره في (ص ٢٨٥ م ١٣) منقولاً عن تاريخ مدينة السلام للخطيب الحافظ قال

حدثني أبو الحسين هلال بن المحسن قال كانت دار الخلافة التي على شاطئ دجلة تحت نهر معلّى قديماً للحسن بن سهل ويسمى القصر الحسيني فلما توفي صارت لبوران بنته فاستنزلها المعتضد بالله عنها فاستنظرته أياماً في تفريفها وتسليمها ثم رمنها وعمرتها وجصصتها وبيضتها وفرشها بأجل الفرش وأحسنه وعلقت أصناف الستور على أبوابها وملأت خزائنها بكل ما يخدم الخلفاء به وربت فيها من الخدم والجواري ما تدعو الحالة إليه . فلما فرغت من ذلك انتقلت وراسلته بالانتقال ، فانتقل المعتضد إلى الدار ووجد ما استكبره واستحسنه ، ثم استضاف المعتضد بالله إلى الدار مما جاورها كل ما وسعها به وكبرها وعمل عليها سورا جمعها به وحصنها وقام المكلفي بالله بعبده بينا التاج على دجلة وعمل وراءه من القباب والمجالس ما تنهى في توسعته وتعليته ، ووافى المقتدر بالله فؤاد في ذلك وأوفى مما أنشأه واستحدثه وكان الميدان والنرياب وحجر الوحوش (بستانها) متصلاً بالدار ، كذا ذكر لي هلال بن المحسن أن بوران سلمت المعتضد الدار إلى المعتضد وذلك غير صحيح لأن بوران لم تنش إلى وقت المعتضد وذكر محمد ابن أحمد بن مهدي الاسكافي في تاريخه انها ماتت في سنة احدى وسبعين ومئتين وقد بلغت ثمانين سنة ويشبه أن تكون سلمت الدار إلى المعتضد على الله والله أعلم

حدثني القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي قال حدثني أبو الفتح أحمد ابن علي بن هرون المنجم قال حدثني أبي قال قال أبو القاسم علي بن محمد الجوارري في بعض أيام المقتدر بالله وقد جرى حديثه وعظم أمره وكثرة الخدم في داره : قد اشتملت الجريدة إلى هذا الوقت على أحد عشر ألف خدام خصي وكذا من صقلي ورومي وأسود وقال هذا جنس واحد مما تضمه الدار فدمع الآن القلمان الحجرية وهم ألوف كثيرة والحواشي من الفحول . وقال أيضا حدثني أبو الفتح عن أبيه وعنه عن (المنار: ج ١٠) (٨٠) (المجلد التاسع عشر)

أبيهما أبي القاسم علي بن يحيى أنه كانت عدة كل نوبة من الفراشين في دار المتوكّل على الله أربعة آلاف فراش ، قال فذهب علينا أن نسأله كم نوبة كانوا . حدثني هلال بن المحسن قال حدثني أبو نصر خواشاذة خازن عضد الدولة قال طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحرمتها وما يجاورها وذاخمتها فكان ذلك مثل مدينة شيراز قال هلال وسمعت هذا القول من جماعة آخرين عارفين بخبيرين

ولقد ورد رسول اصحاب الروم في أيام المقتدر بالله ففرشت الدار بالفراش الجميلة وزينت بالآلات الجميلة ورتب الحجاب وخالهاؤم والحواشي على طبقاتهم على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها ووقف الجند صنفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة وقد أظهروا العدد الكثير والأسلحة المختلفة فكانوا من أعلى باب الشماسية الى قريب من دار الخلالنة ، وبدم الغلمان الحجرية وانخدم الخواص الدارية والبرانية الى حضرة الخليفة بالهزة الرائقة والسيوف . والمناطق المحلاة وأسواق الجانب الشرقي وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة ^(١) وقد كثرت كل دكان وغرفة مشرفة بدراهم كثيرة ، وفي دجلة الشذات والطيارات والذباذب والزلالات والسمرجات ^(٢) بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبئة ، وسار الرسول ومن معه من المواكب الى أن وصلوا الى الدار ودخل الرسول فر به على دار نصر القشوري الحاجب ورأى ضففا كثيرا ومنظرا عظيما فظن أنه الخليفة وتداخلت له هيبة وروعة حتى قيل له انه الحاجب ، وحمل من بعد ذلك الى الدار التي كانت يرسم الوزير وفيها مجلس أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات يومئذ فرأى أكثر مما رآه (عند) نصر الحاجب ولم يشك انه الخليفة حتى قيل له هذا الوزير ، وأجلس بين دجلة والبساتين في مجلس قد علقت ستوره واختيرت فروشه ونصبت فيه الدسوت وأحاط به الخدم بالاعمدة والسيوف ، ثم استدعي بعد أن طلب به في الدار الى حضرة المقتدر بالله وقد جلس وأولاده من جانبه فشهد من الامر ما هاله ثم انصرف الى دار قد أعدت له

حدثني الوزير أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن المسلمة قال حدثني

أمير المؤمنين القائم بأمر الله قال حدثني أمير المؤمنين القاهر بالله قال حدثني جدتي أم أبي اسحاق بن المقتدر بالله أن رسول ملك الروم لما وصل إلى تكريت أمر أمير المؤمنين المقتدر بالله باحتباسه هناك شهرين ولما وصل إلى بغداد نزل دار صاعد ومكث شهرين لا يؤذن له في الوصول حتى فرغ المقتدر بالله من تزيين قصره وترتيب آتفه ثم صف المسكر من دار صاعد إلى دار الخلافة وكان عدد الجيش مئة وستين ألف فارس ورجال ، فسار الرسول بينهم إلى أن بلغ الدار ، ثم أدخل في أزج^(١) نحت الأرض فسار فيه حتى قبل بين يدي المقتدر بالله وأدى رسالة صاحبه ثم رسم أن يطاف به في كل الدار وليس فيها من المسكر أحد البتة وأما فيها الخدم والحجاب والغلمان السودان وكان عدد الخدم إذ ذاك سبعة آلاف خادم منهم أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود وعدد الحجاب سبع مئة حاجب وعدد الغلمان السودان غير الخدم أربعة آلاف فلام قد جماعوا على سطوح الدار والعلالي وفتح الخزان والآلات فيها مرتبة كما يفعل بخزائن العرائس وقد علق الستور ونظم جوهر الخلافة في قلابات على درج غشيت بالديباج الأسود .

ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثير تعجبه منها وكانت شجرة من الفضة وزنها خمس مئة ألف درهم عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر بمركات قد جعلت لها فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده . قال لي هلال بن الحسن ووجدت من شرح ذلك ما ذكر كاتبه أنه نقله من خط الأمير القاضي أبي الحسين بن أم شيبان الهاشمي وذكر أبو الحسين أنه نقله من خط الأمير وأحسبه الأمير أبو محمد الحسن بن عيسى ابن المقتدر بالله قال كان عدد ما علق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطور المذهبة الجليلة المصورة بالجامات والفضة والخيل والجمال والسباع والطيور والستور الكبار البهنائية والإرمنية والواسطية والبهنسية السواجج والمنقوشة والديباجة المطرزة ثمانية وثلاثين ألف متر — منها الستور الديباج المذهبة المتقدم وصفها اثني عشر ألفاً وخمس مئة متر — وعدد البسط والنخاخ^(٢) الجهرية والدرابجودية والاورقية في الممرات والصحنون التي

(١) بيت مستطيل أخضر من النلق (٢) السوابب الانخاخ وهو ضرب من البسط

وطي عليها القواد ورسل صاحب الروم من حد باب العامة الجديد الى حضرة المقنن
 بالله سوى ما في المقاصير والمجالس من الانماط الطبري والديقي التي لحقها النظر دون
 الدوس اثنان ومثرون ألف قطعة، وادخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة
 الاعظم الى الدار المعروفة بخان الخليل وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام وكان
 فيها من الجانب الايمن خمس مئة فرس عليها خمس مئة مركب ذهباً وفضة بنير
 أخشبة ومن الجانب الايسر خمس مئة فرس عليها الجلال الديقاج بالبراقع الطوال
 وكل فرس في يد شاكري بالبنزة الجميلة ثم أدخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز
 المتصلة بحجر الوحش وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت اليها من
 الحجر قطعان تقرب من الناس وتشممهم وتأكل من أيديهم. ثم أخرجوا الى دار فيها
 أربعة فيلة مزينة بالديجاج والوشى على كل فيل ثمانية نفر من السند والزرايين بالنار
 فقال الرسل أمراء، ثم أخرجوا الى دار فيها مئة سبع : خمسون يمنة وخمسون يسرة
 كل سبع منها في يد سباع وفي رؤوسها وأصناعتها السلاسل والحديد
 ثم أخرجوا الى الجوسق المحدث وهي دار بين بستانين في وسطها بركة رصاص
 قلبي حوالها نهر رصاص قلبي أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعاً
 في عشرين ذراعاً ، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة مزينة بالديقي المطرز
 وأخشبها ديقي مذهب وحوالي هذه البركة بستان بمادين فيه نخل قيل ان عدده
 اربع مئة نخلة وطول كل واحدة خمس أذرع قد لبس جميعها ساجاً مقوشاً من
 أصلها والى حد الجُمارة بحلق من شبه مذهبة وجميع النخل حامل بفرائب البسر
 الذي أكثره خلال لم يتغيره ، وفي جوانب البستان اترج حامل ودستنبو ومقنع وغير ذلك
 ثم أخرجوا من هذه الدار الى دار الشجرة وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة
 مدورة فيها ماء صاف وللشجرة ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها ساحات كبيرة
 عليها الطيور والمصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة
 وبعضها مذهب وهي تمايل في أوقات ولها ورق مختلف الالوان يتحرك كما تحرك
 الريح ورق الشجرة وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر وفي جانب الدار بركة البركة
 تمايل خمسة عشر فرساً على خمسة عشر فرساً قد ألبسوا الديقاج وغيره وفي أيديهم

مطارد على رماح يدورون على خط واحد في الناورد خبيا وتقريبا وفي الجانب الايسر مثل ذلك ،

ثم أدخلوا الى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من الفرش والآلات ما لا يحصى ولا يحصر كثرة ، وفي دهايز الفردوس عشرة آلاف جوشن مذهبة معلقة ثم أخرجوا منه الى ممرطوله ثلاث مئة ذراع قدعاق من جانبيه نحو عشرة آلاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وزردية وجمعة محلاة وقسي ، وقد أقيم نحو الفي خادم بيضا وسودا صفين يمتة ويسرة ثم اخرجوا بعد ان طيف بهم ثلاثة وعشرين قصرا الى الصحن التسميني وفيه القلمان الحجرية بالسلاح الكامل والبهزة الحسنة والهيفة الرائعة وفي أيديهم الشروخ والطبرزينات والاعمدة. ثم مروا بمصاف من عليه السواد من خلفاء الحجاب والجنود والرجال وأصاغير القواد ودخلوا دار السلام. وكانت عدة كثير من الخدم الصقالية في سائر القصور يسقون الناس الماء المبرد بالشاي والاشربة والفقاع ومنهم من كان يطوف مع الرسل ولطول المشي بهم جلسوا واستراحوا في سبعة مواضع واستسقوا الماء فسقوا وكان أبو عمر عدي بن أحمد بن عبد الباقي الطرسوسي صاحب السلطان ورئيس الثغور للشامية معهم في كل ذلك وعليه قباء أسود وسيف ومنطقة ووصلوا الى المقتدر بالله وهو جالس في التاج مما يلي دجله بعد ان لبس بالثياب الديقية المطرزة بالذهب على سرير آبنوس قد فرش بالديقي المطرز بالذهب وعلى رأسه الطويل ومن يمتة السرير تسعة عقود مثل السبع معلقة ومن يسرته تسعة اخرى من الخراجواهر واعظمتها قيمة غالبية الضوء على ضوء النهار وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمتة واثنان يسرة. ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر بالله فكفّر له (اي سجد) وقال الرسول لمؤنس الخادم ونصر القشوري وكانا يترجمان عن المقتدر لولا اني لا آمن ان يطالب صاحبكم بتقبيل البساط لقبائنه وان كنتي فعلت ما لا يطالب رسولكم بمثله لان التكفير من رسم شريعتنا ، ووقفا ساعة وكانا شابا وشيخا فالشاب الرسول المتقدم والشيخ الترجمان وقد كان ملك الروم عقد الامر في الرسالة للشيخ متى حدث بالشاب حدث الموت ، وناوله المقتدر بالله من يده جواب ملك الروم وكان ضحما كبيرا فتناوله وقبله إعظاما له واخرجا من باب الخاصة الى دجلة واقعدا وسائر اصحابهما في شذا من الشداوات الخاصة وصعدا الى حيث أنزلا فيه من العار المعروفة بصاعد وحمل اليهما خمسون بدرة ورقا في كل بدرة خمسة آلاف درهم وخلق على أبي عمر عدي الخلع السلطانية وحمل على فرس وركب على الظهر وكان ذلك في سنة خمس وثلاث مئة اه